لا تخَفْ من الجحيم الذي في داخلك، فالله معكَ هناك!

الأب خرلامبوس باباذوبولوس

لا شيء فينا - لا هوىً ولا خطيئةً ولا ضعفًا ولا تعدّيًا - يمكنه أن يمنع الله من دخول حياتنا وكشفِ نفسه لنا. لماذا؟ لأنَّه لا يمكن لشيءٍ أن يوقف عناية الله المُحبّة أو يؤخّر حضوره. سيكون حاضرًا هناك في خضمّ تلك المشكلات! سيكون هناك في ظلمتكَ وفي أخطائك، لكي يُخلِّصك، لكي يشفيكَ، لكي يوقظكَ، لكي تستطيع أن تنمو.

سيكون حاضرًا هناك، في وسط الأمور التي تجري! سيكون في مرضك، وجرحك، وانفصالك، وطلاقك، وطردك من عملك. سيعمل الله من خلال هذه الأشياء كلّها! من خلال صدمتك، ومن خلال جرحك، ومن خلال الجرح النازف الذي لوجودك.

يحبّ الله أن يعمل مع الناس العاجزين، بل يفضّل ذلك. لماذا؟ لأنّ الله ونعمتَه، لكي يجدا راحتهما في شخصٍ ما، يحتاجان إلى أن يجدا مكانًا مناسبًا، وهذا المكان هو القلب المنسحق. كيف يمكن للنور أن يخترق جدارًا سميكًا؟ عندما يكون قلبكَ متحجّرًا، ومعتدًّا بنفسه، وقاسيًا، ويصعب التعامل معه، فكيف سيَصِلُ إليه النور؟ وكيف سيخترقه؟ كان القدّيس باييسيوس الآثوسيّ يقول: "هل تعرفون ماهيّة الشرّ والكراهية في قلب الإنسان؟ إنّها مثل الموادّ العازلة. فكما نعزل شرفةً أو بيتًا حتّى لا يدخل شيءٌ، كذلك لا تستطيع النعمة أن تنفذ إلى القلب المعزول بالشرّ والكراهية". لا تستطيع النعمة الدخول إلى هناك. لكي تدخل النعمة إلى قلب الإنسان، يحتاج الأمر إلى حيِّزٍ يُصنَعُ عبر انسحاق القلب، تحتاج إلى قلبٍ "منكسرٍ ومتخشِّع".

لذلك، لا تخشَ السقوط! لا تخشَ الألم! لا تخشَ الانحناء والاضطرار إلى الركوع! لا تخشَ اللحظات العصيبة! لا تخشَ الليالي الطويلة! لا تخشَ السقوط في جحيمك! لا تخَفْ من جحيمك! لا تخفْ من أهوائك وخطاياك! لا تكن شديدَ الانفعال، ولا تُجهِدْ نفسك، ولا تتوقّف عن الجهاد! في هذه الأمور كلّها يكون المسيح نفسه! الله في وسط تلك الأمور! يعمل على خلاصكَ هناك تمامًا، في جحيمك! في لحظاتك العصيبة، في اللحظات التي تعاني فيها الوحدة!

تذكَّر الصليب! تذكَّرْ رياح الوحدة الباردة في الجلجثة! تذكَّرْ أنّ جميع القدّيسين مرّوا بلياليٍ عصيبة، لياليٍ لا فجرَ بعدها. إنَّنا ننحني أمام هالاتهم ونكرّم مجدَهم في الكنيسة. وخلف هذه الهالات ثمّة وحدة، ثمّة عرقُ جبين، ثمّة مجهود، ثمّة حياةٌ قاسية. ما من موهبةٍ من دون تجارب عظيمةٍ وتقلُّباتٍ شديدة. لذا، لا ترهبْ عندما تشعر بأنّكَ ممزّقٌ من الداخل، لا ترتعبْ من جرحك!

لا تجزعْ من هذا كلّه! لا تفقدْ رباطة جأشك عندما يمرض طفلك! لا تجبُنْ إذا كان لدى طفلكَ احتياجٌ خاصٌّ! فالله سيتولّى الأمر، سيُحوّله ويعالجه ويغيّره! مرض ابني البكر مرضًا شديدًا عندما كان طفلًا، فقال لي كاهنٌ: "لا ترتكب خطأ النَّوح على طفلك! لا ترتكب خطأ التحسُّر عليه أو اعتباره طفلًا مريضًا! لا تُظهِرْ له أنّك تشفق عليه! إنّ هذا الطفل الذي عانى من دون ذنبٍ منذ أن كان في رحم أمّه، سيمتلئ من مواهب الله! سيُعطيه الله النعمة، سيجعله مملوءًا نعمةً!". وهكذا كان، وهذا هو الواقع حقًّا!

ولكن، علينا أن نتعلّم الانتظار! وأن نتعلّم الصبر! يجب ألّا نخشى اللَّيل من أجل أن يبزغ الفجر! علينا أن نفهم أنّ الليل هو عمليّة، وهو جزءٌ من مجيء الصباح! إنّ الصعوبة التي تمرُّ بها ما هي إلّا مرحلة لا بدّ لك من اجتيازها. هي ليست لعنة، ولا تعني أنّ الله تخلّى عنك، بل هي برَكةٌ من الله! قد لا تتمكّن من فهم هذا في حينه، وقد لا يقبل عقلُكَ ذلك، وقد يثور قلبك! هذا أمرٌ بشريّ! إلّا أنّ الله هناك في عين العاصفة، وهو يُعِدُّ اليوم التالي ليكون مُشرِقًا بسماءٍ صافيةٍ مليئةٍ بالنور!

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Fr. Haralambos Papadopoulos (n.d.) “Don't be afraid of the hell inside you, God is with you there!”, in *Sayings of the Romanian Elders*. Substack.